رواية قصيرة

أمواج الظل

صلاح التوم إبراهيم

الطبعة الأولى 2026م

رواية قصيرة

أمواج الظل

صلاح التوم إبراهيم

رواية

أمواج الظل

صلاح التوم إبراهيم

الإيداع القانوني

...../2026م

الناشر:

دار آريثيريا للنشر والتوزيع – الخرطوم – السودان

جوال:

00249122094856-121566207

البريد لإلكتروني:

arithriaforpublishing@gmail.com

تاريخ النشر:

الطبعة الأولى – 2026م

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر والمؤلف

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه كنسخة إلكترونية أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي

أمواج الظل

هذه الرواية القصيرة، ليست مجرد قصة عن فتاة تواجه الحياة، الغربة، والسحر، بل هي مرآة لصراع الإنسان مع ذاته ومع العالم المحيط به. بين الظلال والضوء، بين الألم والفرح، بين الماضي والمستقبل، نجد سلوم الفتاة الحبشية الفاتنة تعلمنا أن الحياة ليست فقط ما يحدث لنا، بل ما نفعله بما يحدث لنا، وأن النجاة الحقيقية تكمن في السير عبر الظلال دون أن نفقد ضوءنا الداخلي.

كل فصل في هذه الرواية، وكل مشهد، يحمل من الرمزية والواقعية ما يجعلها تجربة إنسانية متكاملة. هنا، في كل صفحة، ستشعر بالرعب، بالحنين، بالفرح، وبالأمل. ستشعر بأنك جزء من رحلة سلوم، وأنك تشاركها الألم والنجاة، وأنك، في النهاية، تتعلم معها كيف يكون الضوء حاضرًا حتى في أحلك اللحظات.

الإهـداء

إلى كل العـاملات الشريفـات

اللائي ينسـجن كرامتهن من عرق أيديهن

ويمضين في الحياة بقلوب صلبة ونفوس نقية

يمشين في درب الكفاف ثابتات

لا يلتفتن لما يدنس أو يشين

من كد أيديهن يشرق فجرهن

والستر في عيونهن

عز مكين

-1-

في شواطئ مدينة بورتسودان السودانية، حيث يلتقي الرمل بالماء، وحيث تتقاطع طرق البشر الهاربين من أوطانهم مع موج البحر العتيق، كانت سلوم تجلس كل صباح عند ركنها الصغير، كأنها جزء من المشهد منذ الأزل.

لم يكن بحر القلزم في تلك المدينة مجرد امتداد أزرق للماء، بل كائنًا حيًا، يتبدل مزاجه كما تتبدل وجوه الناس. أحيانًا هادئًا وديعًا، يلامس الشاطئ بأطراف أمواجه كمن يربت على كتف صديق قديم، وأحيانًا أخرى هائجًا، يعلو صوته، ويقذف بأسراره إلى اليابسة، كأنه يحتج على صمت طويل.

على هذا التخوم، نصبت سلوم عالمها الصغير.

حصير من سعف قديم، موقد فحم، إبريق شاي أسودته الأيام، وصينية تلمع رغم بساطتها، وأواني القهوة بأشكالها وزينتها الحبشية. لكن ما كان يمنح المكان روحه الحقيقية، لم يكن الأشياء، بل الرائحة.

رائحة البن الحبشي المحمّص ببطء، المختلط بعبق الزنجبيل، والبخور الذي يتصاعد خفيفًا، كدعاء غير مسموع. كانت الرائحة تسبقها، تتسلل إلى أنوف المارة، وتستدير بهم نحو ركنها دون وعي، كأنها تستدعي فيهم ذكرى بعيدة لا يعرفون مصدرها.

سلوم...

الفتاة الإثيوبية فائقة الجمال، لم تكن جمالًا صارخًا يطلب الانتباه، بل جمالًا هادئًا، يستقر في العين ثم ينفذ إلى القلب. بشرتها السمراء تحمل دفء الشمس، وعيناها الواسعتان تختزنان حزنًا قديمًا، لا يظهر إلا لمن يطيل النظر. كانت تتحرك بهدوء محسوب، تصب القهوة بيد ثابتة، وتقدّم الفناجين بابتسامة مقتضبة، كأنها تعرف أن الكرامة لا تحتاج إلى ضجيج.

على شاطئ البحر، كان الناس يعرفونها دون أن يعرفوا قصتها كاملة.

يقولون: هذه سلوم... بنت الأدب والرزق الحلال.

ويكتفون.

لم تأتِ سلوم إلى هنا باختيارها.

جاءت حين جفّت الأرض في قريتها بأرض الحبشة، حين شحّ المطر، وذبل الزرع، وصار الجوع ضيفًا دائمًا على البيوت. جاءت مع من جاءوا أيام القحط والخوف، أيام كان الحكم يضغط على الأعناق، ولا يسمع أنين القرى البعيدة. خرجت لاجئة، تحمل معها شقيقتها وأهلها، تحمل ذاكرة مثقلة، وأملاً هشًا في النجاة.

في المدينة التي لجأت إليها، تعلّمت أن تصنع من القهوة وطنًا مؤقتًا.

كانت تقول في سرّها: ما دمت أعمل بيدي، فلن أضيع.

وهكذا، صارت أيامها متشابهة، لكنها مطمئنة. شروق الشمس، هدير البحر، صوت الملاعق، وأحاديث الزبائن العابرة عن الغلاء والسياسة والبحر.

غير أن الطمأنينة، في حياة البشر، غالبًا ما تكون هدنة قصيرة.

في أحد الأيام، لاحظت سلوم وجود رجل في العقد الرابع من عمره يجلس بعيدًا قليلًا عن ركنها. لم يكن غريبًا أن يجلس الناس متفرقين على الشاطئ، لكن هذا الرجل كان مختلفًا. كان يختار مكانًا يتيح له رؤيتها بوضوح، ولا يقترب. يلف جسده بملابس داكنة، ويُسدل على رأسه صمتًا كثيفًا.

في البداية، مرّ حضوره مرور العابر.

ثم تكرر.

ثم صار ثابتًا.

كانت تشعر بنظراته حتى حين لا تراه. شيء ثقيل، غير مرئي، كأن الهواء نفسه صار أكثر كثافة. وحين كانت ترفع رأسها صدفة، كانت تلتقي بعينيه، حادتين، جامدتين، بلا ابتسامة، بلا فضول عابر، بل بشيء يشبه التملك.

لم يطلب قهوة.

لم يطلب أيا من المشروبات.

لم يتحدث.

لم يبتسم.

كانت سلوم تدير وجهها سريعًا، وتعود إلى عملها، تحاول أن تقنع نفسها أن الأمر لا يستحق التفكير. لكنها، في أعماقها، كانت تشعر بانقباض خفي، كأن البحر، بكل سعته، صار أضيق.

لم تكن تعلم أن ذلك الصمت لم يكن حيادًا، بل كان بداية.

لم تكن تعلم أن الرجل، الذي يختبئ خلف سكونه، كان ينسج في داخله حكاية مريضة، حكاية لا مكان فيها للرفض.

في تلك الأيام، كانت سلوم تعود إلى بيتها مع الغروب، متعبة الجسد، لكنها مطمئنة القلب.

لم تكن تعرف أن هذا القلب نفسه، الذي حفظته من الانكسار في الغربة، سيكون قريبًا ساحة لمعركة خفية، لا تُرى، ولا تُسمع، لكنها قادرة على هدم الإنسان من الداخل.

وهكذا، على شاطئ بحر القلزم، حيث يبدو كل شيء ساكنًا، كان القدر يبدأ في تحريك موجه الأول.

-2-

ما كان يدور في رأسه

لم يكن يعرف متى بدأت بالضبط.

أكان ذلك اليوم الأول الذي رآها فيه، أم أنه كان يحمل هذا النقص داخله منذ زمن بعيد، ينتظر فقط وجهًا واحدًا ليعلّق عليه كل ما انكسر في روحه؟

كان يجلس بعيدًا عنها، عند الحافة التي يلتقي فيها ظلّ المباني بامتداد الرمل، ويترك البحر خلفه كأنه ظهرٌ لا يريد النظر إليه. أمامه كانت سلوم، تتحرك بهدوء، تصب القهوة، تنحني قليلًا، تبتسم، ثم تعود إلى صمتها.

وكان هذا كافيًا ليشعل داخله شيئًا لم يعرف له اسمًا.

في البداية، قال لنفسه: إنها مجرد امرأة جميلة.

لكن عقله لم يصدّق.

كان جمالها مختلفًا. لا يشبه جمال النساء اللواتي عرفهن من قبل، أولئك اللواتي كنّ يضحكن بصوت عالٍ، أو يكثرن من الكلام، أو يطلبن الاهتمام. سلوم لم تطلب شيئًا. كانت موجودة فقط، وهذا ما أربكه.

كان يشعر، وهو يراقبها، كأنها تملك شيئًا سُلب منه منذ زمن طويل.

طمأنينة؟

نقاء؟

أم وهمًا بالحياة المستقيمة التي لم يعرف طريقها قط؟

لم يكن رجلًا غريبًا عن القسوة.

نشأ في أطراف المدينة، حيث القسوة هي اللغة الأولى، وحيث الرجال لا يُسألون عمّا يشعرون به، بل عمّا يملكونه. تعلّم منذ صغره أن القوة تُؤخذ ولا تُمنح، وأن الرفض إهانة، وأن المرأة، إن أعجبتك، فهي إما لك أو ضدك.

لكن سلوم...

لم تكن تشبه ما يعرفه.

كانت تتجاهله، لا عن قصد واضح، بل كأن وجوده لا يعني لها شيئًا. وهذا ما لم يحتمله.

كيف يمكن لامرأة أن تمرّ عليه هكذا، دون أن تلتفت؟

كيف يمكن أن يكون حاضرًا بكل ثقله، ولا تراه؟

صار يأتي كل يوم.

ليس ليشرب القهوة، بل ليؤكد لنفسه أنها هناك، وأنه هنا، وأن هذا المشهد يتكرر كما يريد. كان يراقب تفاصيلها الصغيرة: طريقة رفعها للفنجان، انحناءة كتفها، الصمت الذي يسبق كلامها. كان يحفظها أكثر مما حفظ نفسه.

ومع الأيام، بدأ الصمت يتحول إلى ضجيج داخلي.

أفكار متلاحقة، صور، تخيّلات، رغبة غامضة في الاقتراب، ثم خوف من الاقتراب. كان يشعر أن شيئًا ما سينكسر إن تحدث، ومع ذلك، كان الصمت ينهشه.

في إحدى الليالي، عاد إلى غرفته الضيقة في أطراف المدينة، ولم يستطع النوم.

رأى وجهها في الظلام.

سمع صوتها، رغم أنها لم تكن تتحدث معه قط.

قال في نفسه: إنها لي... لا تعرف ذلك بعد، لكنها لي.

وكان هذا أول كذب كبير صدّقه.

في الأيام التالية، بدأ يفسّر كل شيء على هواه.

إن نظرت بعيدًا، قال إنها تخجل.

إن ابتسمت لغيره، قال إنها تثير غيرته.

وإن تجاهلته، قال إنها تختبر صبره.

لم يفكر يومًا في أنها لا تريده.

فالرفض، في قاموسه، ليس خيارًا.

وحين قرر أن يتقدم لطلب يدها، لم يكن يفعل ذلك بدافع الحب، بل بدافع الاستحقاق. كأن وجودها في حياته أمر طبيعي، مؤجل فقط. كان يرى في الزواج ختمًا رسميًا لشيء يعتقد أنه حدث منذ اللحظة الأولى.

لكن في أعماقه، كان هناك خوف دفين.

خوف من أن تقول لا.

وخوف أكبر من أن تعني هذه الـ«لا» أنه غير مرئي، غير مرغوب، غير موجود.

ذلك الخوف، الذي لم يعترف به أبدًا، هو ما كان يدفعه إلى التحديق الطويل، إلى الصمت المريب، إلى النظرات التي تشبه التهديد دون قصد واعٍ.

لم يكن يعلم، وهو ينسج أوهامه، أن اللحظة التي ستنطق فيها سلوم بالرفض، ستكون اللحظة التي ينفتح فيها داخله باب لم يُغلق منذ زمن...

باب لا يقود إلا إلى العتمة.

-3-

لم يكن البحر في ذلك الصباح هادئًا تمامًا، ولا هائجًا تمامًا.

كان في حالٍ بين بين، كما لو أنه يتردد، يختبر صبر الشاطئ، ثم يعود أدراجه. موجة تقترب، تتكسر، وأخرى تتبعها، بلا استعجال، بلا قرار نهائي.

سلوم شعرت بذلك التردد في داخلها، دون أن تفهم سببه.

جلست عند ركنها كعادتها، رتّبت الفناجين بعناية، أشعلت الفحم، وانتظرت أن يستقيم الماء فوق النار. كانت تحاول أن تُقنع نفسها أن هذا يوم عادي، شبيه بكل الأيام التي سبقته، لكن شيئًا ما كان ثقيلًا في صدرها، كأن الهواء نفسه صار أبطأ.

كانت تعرف أنه سيأتي.

لا لأنها رأته، بل لأنها اعتادت حضوره كما يُعتاد القلق.

وجاء.

جلس في مكانه المعتاد، بعيدًا، صامتًا، يراقب.

لكن صمته في ذلك اليوم كان مختلفًا. لم يكن صمت المراقبة، بل صمت القرار. كانت عيناه أقل شرودًا، وأكثر ثباتًا، كأنهما حسمتا أمرًا لا رجعة فيه.

حاولت سلوم ألا تنظر إليه، لكنها كانت تشعر به في كل حركة. حين رفعت الإبريق، شعرت بثقله. حين صبّت القهوة، اهتزت يدها قليلًا، فلامت نفسها في سرّها. لم تكن تحب هذا الارتباك، ولا تعترف به.

تقدّم بعض الزبائن، تبادلوا معها كلمات عابرة، شربوا القهوة، وغادروا. كانت تبتسم، تردّ، لكنها تشعر أن الوقت لا يتحرك. كأن الساعة علقت عند لحظة واحدة، تنتظر شيئًا بعينه.

ثم، فجأة، نهض من مكانه.

لم يأتِ بخطوات مترددة، بل بخطوات بطيئة، محسوبة، كأن كل خطوة تحمل وزن أيام كاملة من الصمت. وقف أمامها، قريبًا على نحو لم تألفه، حتى شعرت أن رائحة البحر اختلطت بأنفاسه.

قال بصوت منخفض، لكنه حاد:

أريد أن أتحدث معك.

رفعت رأسها، ونظرت إليه للمرة الأولى طويلًا.

كان وجهه مشدودًا، وعيناه لا تطلبان إذنًا. شعرت بقشعريرة خفيفة، لكنها تماسكت.

تفضل، قالت، بصوت حاولت أن تجعله عاديًا.

سكت لحظة، كأنه يختار الكلمات، أو كأنه يختبر قدرتها على الاحتمال.

أتيت لأطلبك للزواج.

لم يقلها بتردد، ولا برجاء. قالها كما تُقال الحقائق في نظر أصحابها.

سلوم شعرت، للحظة، أن العالم من حولها انكمش. البحر، الزبائن، الأصوات... كلها تراجعت، وبقيت الجملة وحدها، ثقيلة، قاسية.

لم تُفاجأ، لكنها تألمت.

أخذت نفسًا عميقًا، وأجابت بعد صمت قصير:

لا.

قالتها بهدوء، دون انفعال، دون شرح.

كأنها تقول: هذا ليس طريقي.

حدّق فيها، وكأن الكلمة لم تصل إليه كاملة.

ماذا تقصدين بلا؟

لا أوافق، قالت، ورفعت عينيها بثبات. لا أريد هذا الزواج.

كانت تعرف أنها تحتاج أن تكون واضحة. الغموض، في مثل هذه اللحظات، قد يكون خطيرًا.

تغير وجهه ببطء. لم يكن تحولًا مفاجئًا، بل انزلاقًا تدريجيًا، كغيم يتلبد قبل العاصفة.

لماذا؟ سأل.

لأنني لا أعرفك، ولأنني لا أشعر بالراحة، قالت، واختارت كلماتها بعناية. ثم أضافت، وقد أحست بضرورة الصدق: أنت شخص يبدو مريبًا بالنسبة لي.

كانت تلك الجملة كالحجر.

صمت.

ثم ابتسم ابتسامة لم تصل إلى عينيه.

مريب؟ قالها ببطء، كأنه يتذوق الكلمة.

نعم، أجابت، ولم تتراجع.

في داخله، كان شيء ما ينكسر.

كل الأيام التي أمضاها يراقبها، كل الأوهام التي بناها، كل الاعتقاد الصامت بأنها له... انهار في لحظة واحدة.

لكن ما ظهر على وجهه لم يكن الانكسار، بل الغضب.

فكّري جيدًا، قال، وصوته صار أخشن. أمثالي لا يُرفضون بسهولة.

رفعت رأسها أكثر، وقالت:

الرفض ليس إساءة، والقبول ليس واجبًا.

كان البحر خلفه قد بدأ يعلو صوته.

الموج صار أقرب، أكثر ضجيجًا.

نظر إليها نظرة طويلة، مشبعة بشيء لم تستطع تسميته. لم يكن كرهًا خالصًا، ولا حبًا، بل مزيجًا مشوهًا من الاثنين.

ستندمين، قالها أخيرًا.

لم ترد.

دار على عقبيه، ومضى، لكن خطاه لم تكن كما جاءت. كانت أسرع، متوترة، كأن الأرض تضيق به.

بقيت سلوم واقفة، تشعر أن جسدها كله يرتجف، رغم أنها لم تتحرك. حاولت أن تعود إلى عملها، أن تصب القهوة، أن تستعيد يومها، لكن شيئًا ما تغيّر. كانت تشعر أن البحر لم يعد مجرد بحر، وأن الصمت الذي تركه خلفه لم يكن فراغًا... بل وعدًا مظلمًا.

في تلك اللحظة، لم تكن تعلم أن هذا الرفض، الذي نطقته بكرامة، قد أطلق سلسلة من الأحداث ستسحبها إلى قاع لم تتخيله يومًا.

كانت تعلم فقط شيئًا واحدًا:

أنها، للمرة الأولى منذ زمن، خافت.

-4-

لم يعد البحر يعني له شيئًا.

كان يمشي بمحاذاة الشاطئ دون أن يسمع صوته، ودون أن يرى امتداده. الكلمات التي قالتها سلوم كانت أثقل من الموج، وأكثر إزعاجًا من الريح.

مريب...

لم تكن الكلمة في ذاتها، بل ما حملته من معنى: أنه غير مرغوب، غير مرئي بالطريقة التي أراد.

في تلك الليلة، لم يعد إلى منزله أطراف المدينة مباشرة. ظل يتنقل في الأزقة الضيقة، حيث تختلط رائحة العرق بالغبار، وحيث يعرف الناس كيف يخفون أسرارهم. كانت المدينة، حين تُظلم، تكشف وجهًا آخر، وجهًا يعرفه جيدًا.

قال في نفسه وهو يمشي:

هي لا تعرف مصلحتها... ستعرف.

لم يكن يرى نفسه ظالمًا.

كان يرى نفسه مستردًا لحق سُلب منه.

في الأيام التالية، تغيّر إيقاعه. لم يعد يذهب إلى الشاطئ في الصباح. صار يراقب من بعيد، من خلف الجدران، من خلف الناس. كان يتجنب مواجهتها، لا لأن غضبه هدأ، بل لأنه كان ينضج.

في داخله، كانت فكرة واحدة تكبر:

إن لم تأتِ برضاها... ستأتي بغيره.

تذكّر حديثًا قديمًا سمعه ذات مرة في مجلس عابر، عن رجل يعرف ما لا يعرفه الآخرون، رجل يتعامل مع الخفي، مع ما لا يُرى. في البداية، قاوم الفكرة. قال لنفسه إن هذا وهم، خرافة، ضعف. لكنه، كلما تذكّر وجه سلوم وهي تقول «لا»، شعر أن الواقع نفسه صار خرافة، وأن المنطق لم يعد كافيًا.

وفي مساء ثقيل، قصد المكان.

كان البيت في أطراف المدينة، بعيدًا عن الضوء. لا لافتة، ولا باب مميز. فقط جدار طيني، وباب خشبي منخفض، كأنه يُجبر الداخل على الانحناء.

وحين دخل، شعر أن الهواء مختلف، أثقل، مشبع برائحة غريبة لا تُعرّف.

جلس أمام الرجل، ولم يذكر اسم سلوم في البداية.

قال فقط:

أريد قلبًا لا يرى غيري.

نظر إليه الرجل طويلًا، ثم قال بصوت خافت:

القلوب لا تُؤخذ بلا ثمن.

أومأ دون تردد.

كان مستعدًا لأي ثمن.

في الجانب الآخر من المدينة، كانت سلوم تحاول أن تعيش.

مرت أيام قليلة على المواجهة، لكنها شعرت وكأنها أسابيع. عادت إلى ركنها، إلى القهوة، إلى الزبائن، لكن شيئًا ما كان مكسورًا. لم يعد المكان يمنحها الطمأنينة نفسها. كانت تشعر بنظرات غير مرئية، كأن الشاطئ نفسه يراقبها.

في الليلة الأولى، حلمت حلمًا غريبًا.

رأت نفسها تمشي على الشاطئ وحدها، والبحر ساكن على غير عادته. فجأة، شعرت بشيء يشدّها من الخلف، دون أن ترى أحدًا. حاولت أن تصرخ، لكن صوتها لم يخرج.

استيقظت مذعورة.

قالت لنفسها إن الحلم أثر خوف لا أكثر. توضأت، صلّت، وحاولت أن تطرد الفكرة. لكنها، في الصباح، شعرت بتعب لم تعهده. جسدها ثقيل، ورأسها مشوش، كأن النوم لم يزرها.

مرت الأيام، وبدأت أشياء صغيرة تتغير.

نسيان عابر.

صداع متكرر.

ضيق مفاجئ بلا سبب.

وفي بعض اللحظات، كانت تشعر بنداء داخلي غامض، صوت لا تسمعه بأذنها، لكنه يلحّ عليها. كانت تقاومه، تهز رأسها، وتعود إلى عملها، لكن القلق كان يكبر.

أما هو، فقد بدأ يشعر بالانتصار قبل أن يحدث شيء.

كان يعود إلى البيت كل ليلة، يتفقد المكان، يلمس الأشياء كما قيل له، ويتمتم بكلمات لم يكن يفهمها تمامًا، لكنه كان يشعر بقوتها. كان يتخيل سلوم وهي تفقد صلابتها، وهي تبحث عنه، وهي تأتي إليه مكسورة.

لم يكن يشعر بالذنب.

كان يشعر بالاستحقاق.

قال لنفسه:

سأعيد ترتيبها كما يجب أن تكون.

في إحدى الأمسيات، وبينما كانت سلوم تغلق ركنها استعدادًا للعودة، شعرت بدوار مفاجئ. أمسكت بحافة الطاولة كي لا تسقط. جاءتها إحدى النساء اللواتي اعتدن شرب القهوة عندها، وسألتها بقلق عن حالها.

ابتسمت سلوم ابتسامة باهتة، وقالت:

مجرد تعب.

لكنها، في داخلها، كانت تشعر بشيء آخر. شعور بأنها لم تعد وحدها داخل جسدها. كأن أفكارًا ليست أفكارها تمرّ، كأن خوفًا ليس خوفها يطرق قلبها.

وفي تلك الليلة، حين أغمضت عينيها، رأت وجهه.

واضحًا.

قريبًا.

كأنه يجلس عند حافة وعيها.

صرخت.

وهنا، في هذه النقطة بالذات، لم يعد ما يحدث مجرد خوف عابر.

كانت العتمة قد بدأت تعمل، بهدوء، وبلا استعجال، كما تفعل دائمًا.

وكان كل من سلوم، وهو، يسير في طريقه، دون أن يرى الآخر، لكن بخطى تتجه إلى المصير ذاته.

-5-

لم يحدث الأمر دفعة واحدة.

لم تكن هناك لحظة واضحة يمكن لسلوم أن تشير إليها وتقول: هنا بدأت.

كان الانهيار يتسلل كما يتسلل الصدأ إلى الحديد، ببطء، بصمت، حتى يصير الكسر حتميًا.

في الصباحات الأولى، كانت تستيقظ وكأنها لم تنم. عيناها مثقلتان، وجسدها متعب دون جهد. تقوم من فراشها، تتوضأ، تصلي، لكن الكلمات التي اعتادت أن تجد فيها السكينة كانت تتبعثر في فمها. تشعر أن بينها وبين الدعاء حاجزًا خفيًا، كأن شيئًا يقف في المنتصف، لا يُرى، لكنه يمنع الوصول.

حين تخرج إلى الشاطئ، يبدو البحر كما هو، لكن إحساسها به تغيّر. لم تعد تسمع صوته بوضوح، بل كأنه يأتي من مسافة بعيدة، مشوّهًا، لا يحمل الطمأنينة القديمة.

تجلس عند ركنها، تشعل الفحم، تضع الإبريق، وتبدأ يومها... أو تحاول.

أول ما فقدته كان التركيز.

كانت تنسى أسماء الزبائن الذين تعرفهم منذ سنوات، تخلط بين الطلبات، وتسهو وهي تصب القهوة حتى يكاد الإبريق يحترق في يدها. وحين تنتبه، لا تجد تفسيرًا. تضحك أحيانًا لتخفي ارتباكها، لكن الضحكة كانت باهتة، مكسورة من الداخل.

ثم بدأ الخوف.

خوف بلا سبب واضح.

خوف يداهمها فجأة، وهي جالسة بين الناس. تشعر أن قلبها يخفق بعنف، وأن أنفاسها تضيق، وكأن صدرها صار أصغر من الهواء. تلتفت حولها، تبحث عن شيء، عن شخص، عن مخرج، ولا تجد إلا وجوهًا عادية، لا ترى ما تراه.

وفي الليل، كان الأمر أسوأ.

لم تعد تنام نومًا متصلًا. كانت تستيقظ مرارًا، مفزوعة، وعرق بارد يغمر جسدها. ترى أحلامًا متشابهة، تتكرر بتفاصيل مختلفة:

يد تمسك بها من الخلف.

صوت ينادي اسمها بإلحاح.

ظلّ يقف عند باب غرفتها ولا يدخل.

وحين تستيقظ، كانت تشعر أن الحلم لم ينتهِ تمامًا، كأن جزءًا منه بقي عالقًا في الغرفة.

شيئًا فشيئًا، بدأ جسدها ينهار.

نقص وزنها، شحب وجهها، وبرزت عظامها على نحو لم تعهده. نظرت إلى نفسها في المرآة ذات صباح، ولم تتعرف على المرأة التي تنظر إليها. العينان هما العينان، لكن ما فيهما لم يعد لها.

الأشد قسوة لم يكن المرض، بل فقدان السيطرة.

في بعض اللحظات، كانت تشعر أن أفكارًا تُفرض عليها. أفكار لا تشبهها، لا تشبه ما عاشت عليه. كانت تسمع اسمه في رأسها، يتكرر دون إرادتها. تحاول أن تصدّه، أن تشغل نفسها، أن تذكر الله، لكن الاسم كان يعود، كأنه محفور في داخلها.

وذات مرة، وبينما كانت جالسة وحدها، خرج اسمه من فمها دون وعي.

فزعت.

وضعت يدها على فمها، كأنها تحاول حبس شيء يريد الهروب.

في تلك الليلة، صرخت.

لم يكن صراخ ألم جسدي، بل صراخ روح محاصرة. سمع أهل البيت صوتها، هرعوا إليها، وجدوها جالسة في زاوية الغرفة، عيناها زائغتان، وجسدها يرتجف. كانت تردد كلامًا غير مفهوم، وتطلب حضوره، ثم تبكي وتستغيث في اللحظة نفسها.

شقيقتها حاولت أن تضمها، لكن سلوم دفعتها بعيدًا، كأن اللمس يؤلمها.

قالت بصوت مكسور:

ليس أنا... شيء آخر في داخلي.

منذ تلك الليلة، لم تعد سلوم كما كانت.

صار اسم ذلك الشاب يظهر في نوبات الهلع، تصرخ به، تتوسل أن يأتي، ثم تنهار باكية حين يقترب أحد. كانت تهدأ فقط حين يمر طيفه في ذهنها، وحين تغيب عن وعيها، كأن الراحة لم تعد ممكنة إلا بالاستسلام.

أما هو، فكان يراقب من بعيد.

جاءه الخبر على هيئة همسات.

قالوا له إن حالها تغيّر.

إنها مريضة.

إنها تذكر اسمه.

في داخله، لم يشعر بالفرح الصافي، بل بشيء أشبه بالانتشاء المريض.

قال لنفسه:

ألم أقل إنها ستعود؟

لكنه، رغم ذلك، بدأ يشعر بشيء آخر... شيء يشبه الخوف.

لم تكن عودتها كما تخيلها. لم تكن امرأة عاشقة، بل امرأة مكسورة. ومع ذلك، لم يتراجع. كان قد تجاوز نقطة الرجوع.

أما سلوم، فكانت تغيب عنها نفسها أكثر فأكثر.

في بعض الأيام، كانت تنظر إلى البحر ولا تتذكر لماذا كانت تحبه.

وفي بعض الليالي، كانت تتمنى الموت، لا هربًا من الحياة، بل هربًا من ذلك السجن الخفي الذي لا ترى جدرانه.

وحين قال "بخيت" وهو أحد كبار السن ، ممن لاحظوا حالها، كلمة سحر بصوت منخفض، لم تعترض.

لم تناقش.

لم تنكر.

شعرت فقط أن الكلمة، لأول مرة، تفسّر ما لا يُفسَّر.

وهكذا، لم تعد سلوم فتاة القهوة على شاطئ القلزم.

صارت جسدًا يتآكل، وروحًا تُسحب ببطء، وصوتًا يضيع بين الاستغاثة والاستسلام.

وكان القاع... لم يُبلَغ بعد.

-6-

لم يأتِ القرار فجأة، بل نضج تحت وطأة العجز.

كانت سلوم في إحدى نوباتها، جسدها ملتفّ على نفسه، وصوتها يخرج متقطعًا، كأن الكلمات تتكسر قبل أن تبلغ الهواء. شقيقتها كانت تجلس إلى جوارها، تمسك يدها وتبكي بصمت، بينما وقف بعض الأقارب عند الباب، لا يعرفون ماذا يفعلون، ولا إلى من يتجهون.

قالت "زينب" وهي امرأة مسنّة، كانت من رواد ركن القهوة منذ سنوات، بصوت منخفض لكنه حاسم:

هذا ما عاد مرضًا عاديًا... هذه حاجة مربوطة.

ساد الصمت.

لم يعترض أحد.

في مدينة الساحل، لا تُقال مثل هذه الكلمات عبثًا. كانوا يعرفون الفرق بين التعب، وبين ما يتجاوز الجسد إلى شيء آخر. حاولوا الأطباء، وجرّبوا الأدوية، لكن حال سلوم لم يتحسن. بل كانت، بعد كل محاولة، تعود أضعف، وكأن العلاج يلامس السطح ولا يبلغ الجذر.

تداولوا أسماء، أماكن، قصصًا سمعوها عن معالجين، عن شيوخ يفكّون ما عُقد، وعن طرق وعرة تقود إلى القرى الحبشية القريبة من الحدود، حيث لا تزال المعرفة القديمة حيّة، متداولة بين الناس.

كانت سلوم تسمع كل ذلك كأنها تسمعه من خلف زجاج.

لم تعد تقوى على الاعتراض، ولا على الموافقة. كانت فقط تتشبث بخيط واهن من الوعي، يكفي لتدرك أنها تريد النجاة، بأي ثمن.

حين أخبروها بقرار الرحيل، لم تجادل.

أومأت برأسها ببطء، وكأنها توافق على الخروج من نفسها.

كانت الرحلة شاقة.

قطعوا الطريق في سيارة قديمة، تتمايل فوق الحفر، بينما كانت الشمس تضرب الأرض بلا رحمة. سلوم كانت مستلقية في الخلف، عينان نصف مغمضتين، وجسد خفيف كأنه فقد وزنه الحقيقي. في بعض اللحظات، كانت تتمتم بكلمات غير مفهومة، وفي أخرى، كانت تفتح عينيها فجأة، وتنظر إلى الفراغ بخوف.

كلما ابتعدوا عن المدينة، شعرت كأن شيئًا ما في داخلها يقاوم الرحيل. ألم مفاجئ، ضيق في الصدر، صداع حاد. كانت تتلو آيات تحفظها منذ الصغر، لكن صوتها كان يخفت، ويعلو، كأن بينه وبين الكلمات حجابًا.

عند الحدود، تغير المشهد.

الأرض صارت أكثر خشونة، القرى أقل صخبًا، والوجوه تحمل ملامح التعب والصبر معًا. وصلوا إلى قرية صغيرة، لا يكاد يعرفها إلا أهلها، حيث يعيش شيخ عُرف بين الناس بأنه يعالج ما استعصى.

كان البيت بسيطًا، مبنيًا من الطين، تحيط به أشجار قليلة. حين دخلوا، شعروا بسكون غريب، ليس مخيفًا، بل ثقيلًا، كأنه يفرض احترامه.

نظر الشيخ إلى سلوم طويلًا، دون أن يسألها شيئًا.

ثم قال:

هذا الأمر قديم... ومُحكم.

لم يقل سحر مباشرة، لكنه كان واضحًا.

سأل عن اسمها، واسم أمها، وعن متى بدأت حالتها. كان يصغي أكثر مما يتكلم. ثم طلب منهم أن يتركوها معه لبعض الوقت.

في الداخل، جلست سلوم أمامه، بالكاد قادرة على رفع رأسها. بدأ يقرأ، بصوت ثابت، آيات تعرفها، وأخرى لم تسمعها من قبل. في البداية، لم يحدث شيء. ثم، فجأة، شعرت بحرارة تسري في جسدها، كأن نارًا خفيفة تشتعل تحت جلدها.

صرخت.

حاولت النهوض، لكن جسدها لم يطاوعها.

كان في داخلها شيء يقاوم، يتلوّى، يرفض الخروج.

قال الشيخ بصوت حازم:

لا تخافي... هذا ليس أنتِ.

كانت تلك الجملة، لأول مرة منذ شهور، تفصل بينها وبين ما ينهشها. شعرت أن هناك حدًا، ولو هشًا، بينها وبين الألم.

استمرت الجلسات أيامًا، ثم أسابيع.

لم يكن الشفاء سريعًا، ولا سهلًا. في كل مرة، كانت تعود منهكة، تبكي، تتقيأ، أو تغيب عن الوعي. كانوا يسقونها أعشابًا، يطلبون منها الصبر، والذكر، والامتناع عن أشياء لم تفهم معناها، لكنها التزمت بها.

في بعض الليالي، كانت تشعر كأن شيئًا يُنتزع منها. ألم حاد، ثم فراغ. وفي الفراغ، كانت تتنفس لأول مرة منذ زمن.

مرت الشهور ببطء.

وفي صباح هادئ، استيقظت سلوم، ونظرت حولها، وشعرت بشيء مختلف. الصداع لم يكن حاضرًا. الخوف لم يداهمها. الاسم الذي كان يطاردها... غاب.

بكت.

بكاءً طويلًا، صامتًا، كأنه غسل ما تبقى.

قال لها الشيخ في آخر جلسة:

ما أصابكِ لم يكن ضعفًا منكِ، بل شرًا فُرض عليكِ. لكنكِ قاومتِ... ولهذا خرجتِ.

لم تعد سلوم كما كانت تمامًا، لكنها لم تعد مكسورة.

كانت تحمل ندبة خفية، تذكّرها بما مرّت به، لكنها أيضًا تذكّرها بأنها نجت.

وحين قررت العودة إلى مدينة الساحل، رغم خوف أهلها، لم يكن القرار تهورًا، بل رغبة في استعادة المكان، لا الهروب منه.

لم تكن تعلم ما الذي ينتظرها هناك.

لكنها كانت تعلم شيئًا واحدًا:

أنها هذه المرة... عائدة بذاتها.

-7-

حين عادت... وكان كل شيء قد سبقها

عادت سلوم إلى مدينة الساحل في صباح رمادي، لا شمس فيه ولا مطر.

كانت السماء معلّقة

بين حالتين، كما كانت هي تمامًا.

نزلت من السيارة ببطء، واستنشقت الهواء الذي تعرفه. رائحة البحر كانت أول ما وصل إليها، رائحة ملح قديم، مألوف، لكنه لم يعد كما كان. أو لعلها هي التي تغيّرت. شعرت أن أنفاسها أعمق، وأن صدرها، رغم التعب، يتسع أكثر.

المدينة بدت كما تركتها: الشوارع نفسها، الوجوه ذاتها، الأصوات ذاتها. لكن الإحساس لم يكن نفسه. كانت ترى التفاصيل بوضوح غريب، كأن غشاءً رُفع عن عينيها.

كل شيء بدا حقيقيًا أكثر من اللازم.

مشَت قليلًا، متكئة على شقيقتها، حتى وصلت إلى الحي الذي تعرفه. لم تسأل عن أحد، ولم تذكر اسمه. كانت تخشى أن مجرد النطق به قد يعيده إلى داخلها. لكنها، رغم ذلك، كانت تشعر بفراغ غريب، كأن شيئًا كان يحتل مساحة كبيرة ثم اختفى فجأة.

في اليوم التالي، قررت الذهاب إلى الشاطئ.

لم يكن القرار سهلًا. المكان يحمل الذاكرة، والذاكرة تحمل الألم. لكن الشيخ كان قد قال لها قبل الرحيل:

لا تهربي من الموضع... استعيديه.

وصلت إلى شاطئ بحر القلزم قبيل الغروب.

الموج كان هادئًا، متعبًا، كأنه خرج لتوه من صراع طويل. وقفت سلوم هناك، بلا ركن، بلا إبريق، بلا حصير. فقط امرأة تقف أمام بحر يعرفها.

شعرت برعشة خفيفة، لكنها لم تكن خوفًا هذه المرة، بل رهبة.

رهبة النجاة.

كانت تراقب الأفق حين اقتربت منها امرأة تعرفها هي "حواء"، إحدى الزبونات القديمات. نظرت إليها بدهشة، ثم قالت بصوت خافت:

سلوم؟

ابتسمت.

نعم.

حدّقت "حواء" فيها طويلًا، ثم قالت:

الحمد لله... قلنا إنكِ لن تعودي.

لم تسأل سلوم لماذا.

لكن حواء أكملت، وكأن الكلمات كانت محبوسة:

الأمور تغيّرت هنا... كثيرًا.

جلستا على صخرة قريبة. البحر أمامهما، والمدينة خلفهما.

قالت حواء، بعد صمت:

الرجل... ذاك الذي كان يجلس بعيدًا.

شدّ اسم الرجل شيئًا في صدر سلوم، لكنه لم يؤلمها.

ماذا عنه؟ سألت بهدوء.

تنهدت المرأة.

مات.

لم تنتفض سلوم.

لم تضع يدها على صدرها.

لم تشعر بالشماتة، ولا بالارتياح الكامل. شعرت فقط بثقل كلمة مات وهي تستقر في الفراغ الذي خلّفه.

كيف؟ سألت.

وجدوه على قارعة الطريق، قالت حواء. تحت الشمس، هائمًا، كأنه فقد عقله. قالوا إن المخدرات كانت في دمه... وإنه كان يبحث عنكِ في كل مكان.

سكتت قليلًا، ثم أضافت، بصوت أخفض:

لكن هذا ليس كل شيء.

نظرت سلوم إليها، فشعرت أن ما سيأتي أثقل.

بعد موته، تابعَت حواء، بدأ الناس يتحدثون. قالوا إنه كان يدفن أشياء غريبة قرب مكان عملك. طلاسم... أشياء لا تُقال.

لم تشعر سلوم بالخوف.

شعرت ببرودة تسري في أطرافها.

في اليوم التالي، ذهبت مع بعض الناس إلى المكان القديم.

لم تعد وحدها. لم تعد ضعيفة.

حين حفروا الأرض قرب العتبة، ظهرت الأشياء.

رؤوس قردة يابسة.

جلود حيوانات ملفوفة بعناية.

أوراق مكتوب عليها اسمها، مكرّرًا، بمداد أسود، مشوّه.

لم تصرخ.

لم تبكِ.

وقفت تنظر، كأنها تشاهد بقايا حرب انتهت دون أن تعرف كل تفاصيلها. شعرت أن ما كان يسكن جسدها قد خرج، وأن ما تراه أمامها ليس سوى أثره المادي، القبيح، العاري.

أُحرقت الأشياء.

ارتفع الدخان، أسود كثيفًا، ثم تلاشى.

وفي تلك اللحظة، شعرت سلوم بشيء ينفكّ نهائيًا. كأن عقدة ظلّت مشدودة في صدرها، ثم ارتخت.

قال عثمان وهو أحد الرجال العاملين قرب الشاطئ:

هذا تطهير... المكان عاد نظيفًا.

لكن سلوم كانت تعرف أن التطهير الحقيقي كان داخلها.

بعد أيام، عادت إلى ركنها.

لم يكن سهلًا أن تجلس هناك من جديد. لكنها فعلت. وضعت الحصير، أشعلت الفحم، وأعدّت القهوة. حين صعدت الرائحة، أغمضت عينيها لحظة، وشكرت الله دون كلمات.

جاء الناس.

نظروا إليها بإعجاب صامت، بشيء من الرهبة.

قالت رهوة صديقتها وبائعة القهوة بالقرب من مكانها:

كأنكِ عدتِ من الموت.

ابتسمت سلوم ابتسامة صغيرة، وقالت:

بل عدتُ إلى نفسي.

في المساء، حين خلا الشاطئ، جلست وحدها. البحر أمامها، والدنيا ساكنة. فكّرت في كل ما مرّ، في القسوة، في العتمة، في النجاة التي جاءت من حيث لم تتوقع.

لم تشعر بالحقد.

لم تشعر بالرغبة في النسيان الكامل.

شعرت فقط بأن التجربة صارت جزءًا منها، لا يسيطر عليها، لكنه يذكّرها بقوتها.

كانت تعرف، في أعماقها، أن هذه المدينة لم تعد محطتها الأخيرة.

أن البحر، الذي شهد انكسارها، سيشهد أيضًا رحيلها.

لكن قبل الرحيل، كان عليها أن تعيش... مرة أخرى.

وهكذا، على شاطئ بحر القلزم، انتهى فصل العتمة.

لا بانتصار صاخب،

بل بكشف ثقيل،

وهدوء يشبه العدالة حين تأتي متأخرة، لكنها تأتي.

-8-

لم يأتِ الضوء دفعة واحدة.

كان يتسلل، كما يتسلل الصباح في المدن الساحلية، بطيئًا، مترددًا، لا يطرد العتمة تمامًا، لكنه يجعلها أقل سيطرة.

عادت سلوم إلى أيامها على الشاطئ، لكنها لم تعد المرأة نفسها التي غادرته. كانت تجلس عند ركنها، تصنع القهوة كما اعتادت، غير أن في حركاتها هدوءًا جديدًا، لا يشبه الطمأنينة القديمة، بل يشبه وعيًا عميقًا بثمنها.

كانت تعرف الآن أن السلام لا يُمنح، بل يُنتزع.

الناس كانوا يأتون إليها أكثر من ذي قبل.

بعضهم بدافع العادة، وبعضهم بدافع الفضول، وآخرون بدافع الاحترام الصامت. كانوا ينظرون إليها كمن نجا من شيء لا يُرى. لم تكن تحب الأسئلة، ولم تكن تروي قصتها كاملة. كانت تكتفي بابتسامة، أو بكلمة مقتضبة، وكأن ما حدث صار ملكًا لداخلها وحده.

في المساءات، حين يخف الزحام ويهدأ البحر، كانت تجلس قليلًا بعد انصراف الجميع. تنظر إلى الأفق، وتفكر.

لم تعد تخاف الذكريات، لكنها لم تعد تطمئن لها تمامًا. كانت تمرّ بها كما يمر المسافر على مدنٍ عرف فيها الألم، دون أن يتوقف طويلًا.

في أحد تلك الأيام، جاء قبرو، الشاب الإثيوبي الذي يعرفه سكان الساحل بطوله الفارع وابتسامته الهادئه الخجولة .

في كل مرة يأتي فيها من أوربا كان لا ينصرف إلى وطنه إلا بزيارة مدينة الساحل التي خلق فيها صداقات عديدة.

لم يأتِ بوصفه حدثًا، بل بوصفه احتمالًا.

كان شابًا من أبناء جلدتها، عاد من ألمانيا في زيارة قصيرة، يحمل ملامح من عاش في مكانين معًا. لغته العربية مشوبة بلكنة خفيفة، وصمته ليس فراغًا بل إنصاتًا. جلس عند ركنها، طلب قهوة، وشكرها بعينين صافيتين.

في البداية، لم يكن بينهما شيء يُذكر.

حديث عابر عن السفر، عن الغربة، عن المدن الباردة التي لا تشبه البحر. لكن سلوم لاحظت، دون قصد، أنه لا يحدّق، ولا يقتحم، ولا يملأ الفراغ بأسئلة زائدة. كان حاضرًا فقط، وهذا كان جديدًا عليها.

صار يعود.

مرة بعد مرة.

دون استعجال.

كانت تخبر نفسها أنها لا تبحث عن شيء، وأن قلبها لم يبرأ تمامًا. لكن القلب، كما اكتشفت، لا يُدار بالأوامر. كان قبرو مختلفًا عن كل ما عرفته. لم يطلب منها أن تشرح، ولم يحاول أن ينقذها. كان يتعامل معها كإنسانة كاملة، لا كحكاية جرح.

في إحدى الأمسيات، قال لها:

أعرف أن لكل إنسان ماضيًا... لكنني لا أريد أن أملكه، فقط أريد أن أمشي معكِ من هنا.

لم تجبه فورًا.

نظرت إلى البحر طويلًا.

ثم قالت:

المشي معي ليس سهلًا.

ابتسم.

لا أبحث عن السهولة.

لم يكن الحب، في هذه المرة، اندفاعًا.

كان نموًا بطيئًا، حذرًا، يشبه ترميم بيت قديم دون هدمه. كانت سلوم تتراجع أحيانًا، تصمت، تغيب، فيترك لها المساحة. وحين تعود، تجده كما هو، بلا عتاب، بلا امتلاك.

حين تقدم للزواج، لم تفاجأ، لكنها طلبت وقتًا.

لم يكن الرفض هذه المرة خوفًا، بل حرصًا. أرادت أن تتأكد أن ما تشعر به اختيار، لا هروب. وحين وافقت، فعلت ذلك بوعي كامل، لا بوهم النجاة.

تم الزواج بهدوء.

دون ضجيج، دون احتفال كبير.

كان حدثًا داخليًا أكثر منه اجتماعيًا.

وقفت سلوم، في تلك الليلة، على شاطئ البحر، وحدها، قبل أن تغادر. نظرت إلى المكان الذي شهد انكسارها، ثم شهد قيامها. لم تشعر بالحزن الخالص، ولا بالفرح الخالص. شعرت بشيء أعمق: الامتنان.

كانت تعرف أن الرحيل إلى ألمانيا ليس خلاصًا مطلقًا. الغربة ستظل غربة، والذاكرة ستظل ذاكرة. لكنها لم تعد تخشى حملها. كانت تعرف الآن أن الإنسان يستطيع أن يعيش، لا رغم جراحه، بل معها.

حين أقلعت الطائرة، نظرت من النافذة، ورأت البحر يصغر شيئًا فشيئًا. لم تبكِ. أغمضت عينيها، وتنفست بعمق.

كانت تعرف أن ما حدث لها لن يُمحى، لكنه لن يحكمها بعد الآن.

في مكان آخر، بلغة أخرى، ستصنع قهوتها من جديد.

ربما برائحة مختلفة، لكن باليد نفسها، والروح التي تعلّمت أن تحمي نفسها.

هكذا لم تنتهِ حكاية سلوم بانتصارٍ صاخب، ولا بنسيانٍ كامل.

انتهت بشيء أصدق:

امرأة عبرت العتمة، ولم تدّعِ أنها خرجت منها بلا أثر.

لكنها خرجت واقفة.

حاملة ضوءًا يكفيها...

ويمتد، بهدوء، إلى من يقترب.

APD
دار آريثيريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribution